

الفصل الخامس

نتائج الصراع السياسي والعسكري

بين علي ومعاوية

الفصل الخامس

نتائج الصراع السياسي والعسكري

بين علي ومعاوية

بعد أن تلقى علي بن أبي طالب البيعة، صعد المنبر وخاطب العواطف القبائلية بالقول : (لا يستغني الرجل وإن كان ذا مال وولد عن عشيرته، أودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم هم أعظم الناس حيلة من ورائه، وإليهم سعيه وأعطفهم عليه إن أصابته مصيبة أو نزل به بعض مكاره الأمور..لقد واجه المسلمون بعد مقتل عثمان مشكلتين من أخطر ما عرض لهم من المشكلات منذ عهد خلافة أبي بكر، الأولى تتعلق بالخلافة، والثانية تتصل بإقرار النظام وإنفاذ الحدود فيمن قتل الخليفة عثمان بن عفان. وواضح أن الذين قاموا بالانقلاب على الخليفة عثمان، لم يكونوا من الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، نفسه من المهاجرين والأنصار.. وإنما كانوا مجاميع من الجيوش المرابطة في ثغور البصرة والكوفة ومصر، بمعنى أن المعارضة في الداخل داخل الدائرة القرشية أو الدائرة اليمنية القبلية، لم يكن لها التوجه الانقلابي بقدر ما كان قائماً على النصيحة. لقد كانت الحاجة والفقر تبرر تلك الانتفاضة في الأطراف إلى جانب الفساد الإداري والمالي في كل ولايات الدولة الإسلامية.. وبروز طبقة مترفة جديدة تكدست في أيديها الثروات وتزايدت الصيحات من قبل الوافدين على المدينة وهم الذين زاد تواجدهم بفعل الهجرة الداخلية.

نلاحظ ذلك من البيان السياسي الذي توجه به الخليفة عثمان إلى هؤلاء العامة جاء فيه :-

(أما بعد فإنكم بلغت ما بلغت بالاعتداء والاتباع، فلا تفتنكم الدنيا عن أمركم، فإن أمر هذه الأمة إلى الابتداء بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن^(١)).

وبدأ الخليفة علي بن أبي طالب، بتهدة الوضع في المدينة عندما فزع كبار قريش ووجهائهم من أن يهاجمهم المتمردون على السلطة، ومنهم عبيدهم، وبدأ بعضهم يغادر المدينة.. فألقى إليهم خطاباً ذكرهم فيه بفضل (قريش وحاجته إليهم ونظره لهم وقيامه دونهم وأنه ليس له من سلطان إلا ذاك ونادى برئت الذمة من عبد لم يرجع إلى مواليه. فتذامرت السبئية (وهم الثوار ومعظمهم يمنيون قادمون من مصر والكوفة والبصرة) والأعراب وقالوا لنا غداً مثلها ولا نستطيع نحتج فيهم بشيء^(٢)).

لقد كان أمر البيعة للمهاجرين والأنصار، وكان هو أهل مصر مع علي وهوى أهل الكوفة مع الزبير وهوى أهل البصرة مع طلحة. إلا أن معظم المهاجرين والأنصار كانوا لا يرون في علي بن أبي طالب بديلاً.. وكان قد فرض الخلافة عندما عرض عليه الشائرون.. ثم قبل الخلافة من أجل أن لا يستأثر بالأمر معاوية أقوى عمال عثمان.. وأقبل الناس فبايعوا علياً. ولكن نقرأ منهم أبوا أن يبايعوا فلم يلح عليهم علي في

(١) الطبري : المرجع السابق، ج ٢ ص ٥١٩ .

(٢) نفس المرجع، ج ٢، ص ٧٠٢ د نقلًا عن د / محمد عابد الجابري، مرجع سابق ص ١٨٨ .

البيعة ولم يسمح للثائرين في إكراههم عليها.. ومن هؤلاء سعد بن أبي وقاص، وهو أحد رجال الشورى، أبى أن يبايع وقال لعلي : ما عليك مني من بأس، فخلّى علي بينه وبين ما أراد. ومنهم عبد الله بن عمر، أبى أن يبايع وطلب إليه علي من يكفله لأن يلزم العافية ويفرغ من أمر الناس، فأبى أن يقدم كفيلاً، فقال له علي : ما علمتك إلا سيء الخلق صغيراً وكبيراً.. ثم قال : خلوه وأنا كفيله، وأبى البيعة قوم آخرون، من هؤلاء الذين اعتزلوا الفتنة لم يرد علي.. أن يستكرههم ولا أن يعرض عليهم أحد بسوء.. وامتنع طلحة والزبير عن البيعة فأكرها عليها. ولم يتركهما علي وشأنهما كما ترك سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وغيرهما من الذين اعتزلوا الفتنة.. كان علي يعلم أن طلحة يطمح إلى ولاية الأمر.. ولم يكن الزبير أقل طموحاً إلى ولاية الأمر أيضاً فلم يعفهما من البيعة.. وتمت البيعة لعلي في المدينة بعد مقتل عثمان بخمسة أيام.

والسؤال الذي كان مطروحاً هو أقتل الخليفة عثمان ظالماً ؟ وإذا كان كذلك فلا ثار له ولا قصاص من قاتليه.. أم قتل الخليفة مظلوماً ؟ وإذا فلا بد من أن يثار له الإمام الجديد وينفذ في قاتليه ما أمر الله به من القصاص.

أما أصحاب النبي من المهاجرين والأنصار، كانوا يرون أنه قتل مظلوماً وأنه ليس للخليفة بد من الثأر بدمه، وأن أمور الدين لا تستقيم إذا ضيعت الحقوق وأهدرت الدماء ولم تقم الحدود. وهذا إذا كان شخصاً عادياً من عامة الناس، فكيف إذا كان خليفة المسلمين، وتم قتله مع سبق الإصرار والترصد.. وكان المهاجرون والأنصار يقولون ما يمنع الناس إن لم تقتص من قتلة عثمان أن يثوروا بكل من سخطوا عليه من أئمتهم

فيقتلوه.. وقد سمعهم علي وأقرهم على ذلك الرأي وطلب التمهّل والأناة حتى تستقيم الأمور ويقوى سلطان الخليفة في الأمر ثم ينظر في القضية بعد ذلك فيجري الأمر فيها على ما قضى اللهُ رسوله في الكتاب والسنة. أما الرأي الآخر يتمثل بالتمردين الثائرين كانوا يرون أن الخليفة قتل ظالماً فليس له ثأر ولا ينبغي للإمام أن يقتل به أحداً . ولم يقم علي بالتحقيق في مقتل عثمان.

وكان ملف التحقيق بدأ باستجواب (محمد بن أبي بكر الصديق) واستبان أنه لم يقتل الخليفة ولكنه تسور الدار مع من تسورها عليه.. فقد كان له إذاً في مقتل عثمان يد في ذلك.. خاصة عندما شهد عليه الغافقي أنه هو الذي بدأ بقتل الخليفة.. ولم يحقق مع الغافقي^(١). لذلك لم يستقبل المسلمون خلافة علي بمثل ما استقبلوا به خلافة عثمان من رضى النفوس وابتهاج القلوب.. وإنما استقبلوا خلافة في كثير من الوجوم والقلق والإشفاق واضطراب النفوس واختلاط الأمر.

وأقبل علي على الخلافة واستأنف سيرة عمر، فلم يوسع بالعطاء ولم يمنح الناس المنح المالية ولم ييسر لهم أمورهم.. ومع ذلك كان الخليفة الجديد متأثراً بأطروحات الثائرين إلى حد ما.. فلم يقم بالقبض على القتلة الفعليين مع علمه بهم.. وهو يعلم علم اليقين أن القبض على القتلة و التحقيق معهم هو جزء مهم وأساسي لتثبيت دعائم سلطته ومن مهام عمله

(١) انظر : المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، مرجع سابق، ص ٣٥٣ - ص ٣٥٧ كذلك : الطبري ج ٤ مرجع سابق، ص ٣٥٨ - ص ٣٦١ أيضاً : ابن الأثير : الكامل في التاريخ : بيروت، دار الكتب العلمية، مج ٣، ط ١، ١٩٨٧، ص ٥٣ - ص ٥٧ انظر أيضاً : ابن قتيبة الإمامة والسياسة، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٠ - ص ٤٦ .

الجديد. لكنه بدأ عمله بالقضاء على نظام حكومة عثمان، وما نتج عنها من الآثار السيئة .

ولم يكن بمقدور علي الاحتفاظ بولاية عثمان لأنه كثيراً ما وجه إليه اللوم على توليتهم كما ساء سيرتهم في الأمصار.. لذلك شرع بعد أخذه البيعة من أهل لمدينة في عزل هؤلاء الولاية وتولية غيرهم.. وكان قد نصحه المغيرة بن شعبة وعبدالله بن عباس بأن يقر عمال عثمان على أعمالهم حتى يستتب الأمر له، فلم يستمع إلى نصحهم ، وبعث عماله إلى الأمصار ليحلوا محل ولاية عثمان، فبعث إلى البصرة عثمان بن حنيف، وأرسل أخاه سهل بن حنيف إلى الشام وعبدالله بن عباس إلى اليمن وولى قيس بن سعد بن عبادة على مصر، وعمارة بن شهاب لولاية الكوفة، لكن أهلها ردوه، وأعلنوا أنهم لا يريدون بأمرهم أبي موسى الأشعري بديلاً دخل قيس بن مسعد مصر دون عناء وأخذ البيعة من أهلها لعل، أما عثمان بن حنيف فذهب إلى البصرة ولم يردده أحد وتوجه سهل بن حنيف إلى الشام، لكنه لم يكـد يصل إلى تبوك حتى لقيته خيل معاوية ، فلما سألوه عن مقصده أخبرهم أنه ولي إمارة الشام فقالوا له : إن كان عثمان بعثك فأهلاً بك، وإن كنت أميراً من قبل غيره فارجع إلى من أرسلك فعاد سهل إلى علي بالمدينة.

وعندما علم الخليفة الجديد رفض معاوية بالاعتراف بخلافته. دعا علي بن أبي طالب إلى اجتماع طارئ لأعلام قريش.. ومنهم طلحة والزبير ليشاورهم فيما يفعل، وقال لهم : إن الذي كنت أحذركم منه قد وقع، إنها فتنة كالنار كلما سمرت ازدادت واستتارت، وأنه من الخير القضاء عليها في مهدها. ثم بدأ بتجهيز جيش لغزو الشام، ودفع اللواء إلى محمد

بن الحنفية واستخلف على المدينة قثم بن عباس، وكتب إلى كل من قيس بن سعد وعثمان بن حنيف، وأبي موسى الأشعري بأن يتهيؤوا للخروج إلى الشام، ودعا أهل المدينة ليكونوا على استعداد تام لمواجهة جيش معاوية رئيس قوى المعارضة والممتنع عن البيعة^(١).

وقال لهم: (إن الله عز وجل بعث رسولاً هادياً مهدياً بكتاب ناطق وأمر قائم واضح لا يهلك عنه إلا هالك.. وإن في سلطان الله عصمة، أمركم فأعطوه طاعتكم غير ملوية ومستكره بكم ما أفسد أهل الآفاق وتقضون الذي عليكم)^(٢).

في الوقت ذاته وصلته أخبار من المدينة بأن جماعة منشقين من أصحابه، متوجهون نحو مكة.. ولحق بهم طلحة والزبير، بعد أن استأذنا علياً، وزعما أنهما يريدان العمرة، كما لحق بالمنشقين بعض من ولاهم عثمان وخلعهم علي مثل عبد الله بن عامر. ويعلي بن أمية، وآخرين كمروان ابن الحكم، وسعيد بن العاص، والوليد بن عقبة.. فضلاً عن ذلك كانت أم المؤمنين السيدة عائشة بنت أبي بكر وزوج الرسول تقيم بمكة. وعرف عنها كراهيتها لعلي بن أبي طالب.. وكانت من أشد نساء الرسول الكريم إنكاراً على عثمان، فلما بلغها انتخاب علي.. رأت أن الأمور سارت على غير ما تريد، فأعلنت أن عثمان قتل مظلوماً، وتحدثت إلى الناس من خلف الستر بقولها: (إن الغوغاء من أهل الأمصار وعبيد أهل المدينة، اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلماً بالأمس ونقموا عليه استعمال من حدثت سنه، وقد استعمل أمثالهم قبله مواضع من الحمى

(١) انظر الطبري، ج ٣ ص ٤٦٥-٤٦٦.

(٢) المرجع نفسه ص ٤٦٦.

حماها لهم، فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً، بادروا بالعدوان فسفكوا الدماء الحرام، واستحلوا البلد الحرام، والشهر الحرام، وأخذوا المال الحرام^(١). سمعوا الناس لها وتأثروا، وكتب علي كتاب تولية خالد بن العاص بن المغيرة على مكة، "وقد وصل إلى مكة وهي أشد ما تكون من الثورة لما كانت تسمع من حديث عائشة. فكان ما كان من رفض البيعة وإلقاء الكتاب الذي كتبه على سقاية زمزم"^(٢).

وبعد وصول طلحة والزبير وانضموا إلى من كان من الغاضبين لعثمان المعارضين لعلي.. منذ ذلك الحين أصبحت مكة مثابة تجمع لقوى المعارضة لخلافة علي. تجمهر الغاضبون لعثمان، وبدأ الحديث عن الثأر لعثمان من الذين قتلوه.. ثم يعود أمر المسلمين شورى بينهم فيختار المسلمون من يريدون خليفة لهم، دون استكراه أو خوف من السيوف المسلطة على الأعناق، واتجه الناقمون لمقتل الخليفة عثمان نحو البصرة، لسببين الأول لكثرة المضرة فيها، والثاني لأن عبد الله بن عامر، زعم لهم أن له بين أهلها مودة وصنائع فيسمعوا له ويطيعونه^(٣).

وكان طلحة والزبير يعلمان مدى تأثير أحاديث عائشة في الناس، فحرضاهما على المسير بصحبتهما إلى البصرة. وقالوا لها: إن أهل البصرة لو رأوك لكانوا جميعاً يداً واحدة معك، فأجابتهم إلى الخروج.. ولما أعدوا الرحيل أمدهم عبد الله بن عامر، ويعلي بن أمية، بكثير من المال ونادى المنادي أن أم المؤمنين وطلحة والزبير، ذاهبون إلى البصرة، فمن كان

(١) انظر: د/ طه حسين، إسلاميات، بيروت، دار العلم للملايين، ط ٤، ١٩٨٤، ص ٨٥٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٨٥٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ٨٨٦.

يريد إعزاز الإسلام وقتال المحلين والطلب بثأر عثمان، وليس له مركب وجهاز، فليأت فحملوا ستمائة رجل على ستمائة ناقة سوى من كان له مركب، ولحق بهم كثير من الناس وقد تزودوا جميعاً بالمال وانشغل علي بخروج عائشة وطلحة والزبير^(١) عليه وذهابهم إلى البصرة فعمل على المسير في آثارهم، ولما تعثر عليه اللحاق بهم، أرسل إلى أبي موسى الأشعري - وكان عاملاً لعثمان على الكوفة - ليستجد بأهلها، لكن أبا موسى، خذل الناس عن القيام بنصرته لكراهته أن يحارب المسلمون بعضهم بعضاً.. كما أبى الخروج مع أهل ولايته.. لذلك كتب إليه علي يعنفه ويعزله عن عمله ويقول له : (إني قد بعثت الحسن وعماراً يستتفران الناس، وبعثت قرظة بن كعب والياً على الكوفة، فاعتزل عملنا مذموماً مدحوراً، وإن لم تفعل فإني قد أمرته أن ينادك، فإن نأبذته فظفر بك يقطعك إرباً إرباً)..

وصل هذا الكتاب إلى أبي موسى. أعتزل عمله في ولاية الكوفة. ثم استجاب بعض من أهل الكوفة لعلي، وذهب معهم إلى البصرة وكان التجمع العسكري في البصرة مقسماً إلى ثلاثة أقسام. الأول يؤيد عائشة. الفريق الثاني يؤيد علياً، أما الفريق الثالث، فكان يرى أن يبقى على الحياد.. وكانوا سفراء بين الفريقين من أجل إجراء الصلح فقد أرسل علي لمعسكر عائشة، القعقاع بن عمرو ليدعوهم للصلح فأخبروه أنهم جاءوا

(١) يقول المؤرخ اليعقوبي.. تاريخ اليعقوبي، ج ٣ ص ١٥٦ : إن الخليفة علياً كان قد ولي طلحة اليمن، والزبير الإمامة والبحرين، ثم ما لبث أن استرد عهد توليتهما، فعتبا عليه، وقالوا أثرت، علينا، فقال : لولا ما ظهر من حرصكما فقد كان لي فيكما رأي. نقلاً عن : د/ جمال الدين سرور /، الحياة السياسية في الدول العربية، مرجع سابق، ص ٧٢.

للإصلاح وأن وجه الإصلاح أن يقتل قتلة عثمان لأن قتلهم إحياء للقرآن، وتركهم ترك للقرآن، فاحتج القعقاع عليهم بحالهم الذي كان أقرب إلى الاستقامة قبل القتال، الذي كان وقع بينهم وبين بعض أهل البصرة، منه بعد القتال، ودلل عليهم بموقف الأعداد الكبيرة من أبناء القبائل التي حميت غضباً لقتلها ونفرت لتمكن منهم المطلوبين لهم منها، وعند ما عاد القعقاع إلى علي أخبره بذلك فأعجبه ووافقه^(١).

وكان جيش علي يضم الفريق الذي عارض عثمان، وهؤلاء قد اتفقوا فيما بينهم أن ينفخوا نار الحرب بأي طريقة، فهاجم بعضهم ذات يوم المعسكر البصري، فثار أهل البصرة، وظنوا أن علياً غدر بهم، فأدى ذلك إلى اشتباك الفريقين في حرب طاحنة في مكان يقال له الخريبة^(٢) جمادي الآخر عام ٣٦هـ.. انتهت هذه المعركة بهزيمة عائشة وطلحة والزبير في واقعة الجمل، وعرفت بذلك نسبة إلى الجمل الذي كانت تركبه السيدة عائشة، وحواليها الناس تحرضهم على القتال، وقد انتهت هذه الواقعة بانتصار علي ودخوله البصرة، ومقتل طلحة والزبير، وعمل الخليفة على - قبل أن يغادر البصرة - إعادة أم المؤمنين عائشة إلى المدينة، وأمر بتجهيزها بما تحتاج إليه في سفرها. وأرسل بصحبته أربعين امرأة من نساء البصرة كما ذهب معها أخوها (محمد بن أبي بكر الصديق). وبعد أن حقق الخليفة انتصاره في معركة (الجمل)، أخذ لنفسه البيعة من سكان البصرة، وكان فيها : ((عليك عهد الله وميثاقه

(١) محمد ضيف الله البطاينة : قتلة عثمان بن عفان، بين علي بن أبي طالب ومعارضيه. المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد ١٣ مج ٤ شتاء ١٩٨٤، ص ٣٠.

(٢) الخريبة : موضع بالبصرة، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٢٦.

بالوفاء لتكونن لسلمنا سلماً ولحرينا حرياً ولتكفن عنا لسانك ويدك..))
وبعد فراغ الخليفة علي من البيعة، عمد إلى بيت المال، فقسم ما وجد فيه
على أتباعه، لكنه لم يبح لهم أن يأخذوا ما ظفروا به بعد الهزيمة، فقال
بعضهم، يحل لنا دماؤهم ويحرم علينا أموالهم. وتوجه نحو الكوفة،
وأستقر بها وأصبحت عاصمة لخلافته. ومن هناك بعث جرير بن عبد الله
إلى معاوية يدعوه إلى الطاعة والبيعة، والدخول فيما دخل فيه المهاجرون
والأنصار.. لكن معاوية أخذ يماطله، ويشاور وجوه أهل الشام وقادة
الجيش وأهل بيته فيما طلبه علي.. فأشار عليه عمرو بن العاص أن يلزم
علياً دم عثمان، وكان معاوية نفسه يحرض أهل الشام على المطالبة بثأره.
وامتنع عن بيعة علي بحجة أنه آوى قتلة عثمان، وأن بيعته ليست مشروعة
وأنه ليس لعلي أن يعزله عن ولاية الشام التي ولدها عليها عثمان بن عفان،
وفشلت السفارة بين طرفي النزاع، فرجع إلى علي وأنهى إليه إصرار معاوية
على التمسك بموقفه من بيعته واجتماع أهل الشام معه على قتاله وأنهم
يبيكون على عثمان ويقولون إن علياً آوى قتلته، وأنهم لا ينتهون عنه حتى
يقتلهم أو يقتلوه.

وهيمنت قريش على دائرة المعركة بين علي ومعاوية.. كان على رأس
قريش معاوية، وكان العرب يشكلون الأغلبية العظمى في صفوف علي،
إذ لم يكن يقاتل معه سوى عدد محدود جداً من القرشيين. كانت ربيعة
على رأس القبائل المخلصة لعلي، وكان كثير الثناء عليها، وقد حاول أن
يقيم بينها وبين القبائل اليمنية حلفاً يحيي به حلفاً كان بينهما قبل
الإسلام، وأهم القبائل اليمنية التي كانت في صفوف علي هي (كندة،
وبجيلة، وهمدان، وخثعم، والأزد) أما جيش معاوية فكان يتألف أساساً

من القبائل اليمنية التي سكنت شمال الجزيرة العربية خاصة الشام منذ أن هاجرت إلى هناك قبل الإسلام، ومن أبرزها قبيلة (كلب) و إلى جانب القبائل اليمنية تأتي قبائل قيس التي كانت تمثل العنصر المضري في الشام، وبالأخص منها (ثقيف) التي كان منها كبار الولاة الأمويين على العراق مثل المغيرة بن شعبة، وزيايد بن أبيه، والحجاج بن يوسف الثقفي.

عمل علي بن أبي طالب على إقامة جسر من التفاهم بين ربيعة والقبائل اليمنية ضد قريش، ومع ذلك لم يستطع إقرار التعايش والتعاون بين العنصر اليمني والعنصر المضري في صفوفه، فكان ذلك من أسباب هزيمته.

في معركة صفين التقى جيش علي وجيش القوى الانفصالية الرافضة لشرعية خلافة علي ودارت رحى المعركة، التي ذهب ضحيتها آلاف القتلى من الفريقين، وأوشك النصر أن يتحقق للقوات الشرعية.. لولا أن ظهرت دعوة التحكيم، وهي مؤامرة شارك فيها (معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص) مع بعض رجالات علي، وفي طليعتهم (الأشعث بن قيس) قائد جند اليمن. كان الأشعث بن قيس، عاملاً لعثمان علي أذربيجان، إلا أن عثمان كان قد ترك له خراجها فلما ولي علي الخلافة، عزل الأشعث بن قيس من عمله برسالة شديد اللهجة قال له فيها: "إنما غرك من نفسك إملاء لله، فما زلت تأكل رزقه وتستمتع بنعمه وتذهب

طبيباتك في أيام حياتك، فأقبل واحمل ما قبلك من الفضيء ولا تجعل على نفسك سبيلاً”^(١).

والرواة يذكرون أن دعوة الأشعث بن قيس إلى الكف عن قتال معاوية قد سبقت إعلان الدعوة إلى التحكيم على لسان معاوية وأتباعه فلقد ذهب صبيحة يوم تواصل قتاله مع الليل الذي سبقه النهار الذي قبله، ذهب إلى علي، فقال (يا أمير المؤمنين والله لقد لقيت الحرب في الجاهلية والإسلام، فما رأيت حرباً قط كحرب يومنا هذا وليلتنا هذه. اللهم إنك تعلم أنني لا أقول هذا فزعاً من الموت، والله لقد اشتبكت الرماح بيننا

(١) د / طه حسين : الفتنة الكبرى، ج ٢، دار المعارف المصرية ١٩٦٩ ص ١٥. ويشير السعودي، إلى تلك المعركة على النحو التالي :- كان سير علي من الكوفة إلى صفين لخمس خلون من شوال عام ٣٦٠هـ وقد توزع في مقدار ما كان معه من الجيش، فمكث ومقلل، والمتفق عليه من قول الجميع تسعون ألفاً. أما جيش معاوية الذي جاء به من الشام فالتفق عليه من قول الجميع فمكث خمسة وثمانون ألفاً فسبق علياً إلى صفين، وعسكر معاوية في موضع سهل فيح في موضع قريب من الفرات وبات علي وجيشه في البر عطاشاً قد حبل بينه وبين الورد. فأرسل علي الأشتر على رأس قوة عسكرية تقدر بأربعة آلاف مقاتل، ثم سار علي وراء الأشتر بباقي الجيش، وهجم الأشعث على جيش معاوية فارتحل معاوية عن الموضع، وورد علي فتل في الموضع الذي كان فيه معاوية، وسمح الخليفة علي لرجال معاوية من ورود الماء. ثم بعث علي إلى معاوية يدعوه إلى اتحاد الكلمة، والدخول في جماعة المسلمين، وطالت المراسلة بينهما. فاتفقا على المودعة إلى آخر المحرم من سنة ٣٧هـ ولما كان في اليوم الآخر من المحرم قبل غروب الشمس بعث علي إلى أهل الشام : إني قد أحتججت عليكم بكتاب الله، ودعوتكم إليه، وإني قد نبذت إليكم على سواء إن الله لا يهدي كيد الخائنين، فلم يردوا عليه جواباً إلا (السيف بيننا وبينك أو يهلك الأعجز منا) وبدأ القتال بمبارزة فردية.. و من قوم علي برز عمار بن ياسر يصيح بأعلى صوته.. والذي نفسي بيده لنقاتلهم على تأويله كما قاتلناهم على تنزيله، وسقط قتيلاً.. السعودي (تحقيق : محمد محي الدين عبد الجيد ، ج ٢، بيروت، ط ٥، ١٩٧٣ م، ص ٣٨٤ - ص ٣٩١ .

حتى لو أردنا أن نجري الخيل عليها لجرت، ولئن التقى المسلمون يومنا هذا، لا يبقى لأهل الشام والعراق بقية، وليركب الروم على الشام وأهله، وفارس على العراق وأهله.

نجح الأشرتبز مالك بتحقيق انتصاراته على جند الشام، ولما شعر جند الشام أن الخطر يهددهم، فكر عمرو بن العاص في تدبير حيلة ينتهي بها القتال، وهي أن يشير على جنده برفع المصاحف على أسنة الرماح^(١) وأن يقولوا هذا كتاب الله حكم بيننا وبينكم.

كان عمرو بن العاص على يقين من أن فكرة التحكيم ستكون غير مقبولة عند فريق من جيش علي مما ترتب عليه إثارة الخلاف بينهم وهو الهدف الذي تحقق فيما بعد.. فدعا جند الشام إلى رفع المصاحف وقالوا: (هذا حكم كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم من لشغور الشام بعد أهله، ومن لشغور العراق بعد أهله^(٢) فلما شاهد علي هذه المصاحف، سارع كثير منهم يدعونه إلى قبول تحكيم كتاب الله فأبى على وبين لهم أن ذلك عمل سياسي وليس دينياً ورفع المصاحف ما هو إلا خديعة

(١) ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة ج ١ القاهرة، مؤسسة الحلبي وشركاه ص ١٠١ ص ١٠٢ ويروي علي النحو التالي: قال: - ذكروا أن أهل العسكرين باتوا بشدة من الألم، ونادى علي أصحابه، فأصبحوا على رايائهم ومصافحتهم فلما رأهم معاوية وقد برزوا للقتال، قال لعمرو بن العاص: يا عمرو، ألم تزعم أنك ما وقعت في أمر قط إلا خرجت منه؟ قال: بلى، قال: أفلا تخرج مما ترى؟ قال: والله لأدعوهم إن شئت إلى أمر أفرق فيه جمعهم، ويزداد جمعك إليك اجتماعاً إن أعطوكه اختلفوا وإن منعوكم اختلفوا. قال معاوية: وما ذلك؟ قال عمرو: تأمر بالمصاحف فترفع ثم تدعوهم إلى ما فيها، فوالله لئن قبله لتفترق عنه جماعته، ولئن رده ليكفرنه أصحابه فدعا معاوية بالمصحف، ثم دعا رجلاً من أصحابه يقال له ابن هند فنشرة بين الصفيين، ثم نادى: الله الله في دمائنا ودمائكم الباقية، بيننا وبينكم كتاب الله، فلما سمع الناس ذلك ثاروا إلى علي فقالوا قد أعطاك معاوية الحق ودعاك إلى كتاب الله فأقبل منه ورفع صاحب معاوية المصحف وهو يقول: بيننا وبينكم هذا المصحف .

(٢) الطبري: مرجع سابق ج ٤، ص ٣٧ .

ومكيدة لإثارة الفتنة بين جيشنا ، لكن فريق القراء من جنده يلحون عليه في الإستجابة إلى قبول تحكيم كتاب الله ، وقالوا له (أجب إلى كتاب الله عز وجل إذا دعيت إليه وإلا ندفعك برمتك إلى القوم. أو نفعك كما فعلنا بابن عفان)^(١). ورفضوا استمرار القتال ، وأنذروا علياً بمفارقتة إذا لم يطلب الأشرار بن مالك النخعي ، الكف عن الحرب ، فبعث علي قائد جيشه الأشر ، وكان قد أوشك على تحقيق النصر ، يطلب إليه وقف القتال ، فلم يردأ من الإذعان لطلبه خوفاً من الفتنة ، وبذلك انتهت موقعة صفين وحل محلها التحكيم.

من أجل ذلك بعث علي بن أبي طالب (الأشعث بن قيس الكندي) إلى معاوية. يعرف ما يريد من رفع المصاحف ، فأجابه معاوية بقوله : لنرجع نحن وأنتم إلى أمر الله عز وجل في كتابه ، تبعثون منكم رجلاً ترضونه ، ونبعث منا رجلاً ، ثم نأخذ عليهما أن يحكما بكتاب الله لا يعدوانه ، فلما عاد الأشعث إلى علي وأخبره بجواب معاوية ، رضى الكثير من أنصار علي ، ونزل علي عند رأيهم بعد أن حاول عبثاً هو والأشعث بن مالك أن يبينوا لهم أن دعوة التحكيم خدعة^(٢).

والملاحظ أن هذا التنازل - من قبل علي - منح شرعية ، لمعاوية بأحقيته بالخلافة وأن خلافة علي بن أبي طالب منتهيه.. بعد قبوله التحكيم. وهكذا كان دهاء عمرو بن العاص محكماً ، حيث منح صاحبه حق الخلافة بعد نهاية التحكيم.

(١) المرجع نفسه، ص ٣٤ .

(٢) د / محمد جمال الدين سرور الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية ، مرجع سابق ص ٧٧

وهكذا وقع اختيار أهل الشام على (عمرو بن العاص) ليكون حكماً من قبلهم أما أهل العراق، فلم يجمعوا رأيهم على من يمثلهم في التحكيم، ولم يمنحوا الخليفة (علي بن أبي طالب) حق الاختيار من يمثلهم، حيث ألح الأشعث بن قيس الكندي، ومن تبعه منهم في اختيار أبي موسى الأشعري، رغم عدم ثقة علي به منذ أن خذل الناس عنه في الكوفة ونهاهم عن الخروج معه، حتى اضطر إلى عزله عن عمله^(١)، وكان علي يرى اختيار عبد الله بن عباس، فرفض أصحابه، وقالوا: لا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء، ليس إلى واحد منكما بأدنى منه إلى الآخر.

وكذلك رفضوا اختيار "الأشتر بن مالك" لأنه كان يرى المضي في الحرب حتى النصر^(٢) وأصبح الخليفة مضطراً إلى النزول على رغبتهم في اختيار أحد الحكمين، وقال لهم: "اصنعوا ما أردتم، فبعثوا في طلبه، وكان قد اعتزل القتال وأقام بإحدى قرى الشام.

وقد قتل من أصحاب معاوية عبيد الله بن عمر بن الخطاب، قاتل الهرمزان، كما قتل الكثير من سابقى العهد بالإسلام، وقتل من أصحاب علي "عمار بن ياسر" هو ابن أول شهيد في الإسلام، وهو الذي

(١) الطبري، مرجع سابق ج ٤، ص ٣٦ ص ٣٧ .

(٢) ويبدو أن، المناوئين للخليفة علي بن أبي طالب، داخل جيشه، كانوا يمثلون أشبه بطابور خامس لصالح معاوية.. ويشير: د/ طه حسين: في كتابه: إسلاميات: بيروت، دار العلم للملايين، ط ٤، ١٩٨٤م، ص ٨٥٨، إلا أن معاوية لو أنصف وأخلص نفسه للحق أن يبايع كما يبايع الناس، ثم يأتي إلى علي مع غيره من أولياء عثمان فيطالبون بالإفادة ممن قتله، ولكن معاوية لم يكن يريد أن يشار لعثمان بمقدار ما كان يريد أن يصرف الأمر عن علي.. بدليل أنه لما استقام له الأمر بعد وفاة علي بن أبي طالب تناسى ثأر عثمان ولم يتتبع قتلته.."

قال له النبي صلى الله عليه وسلم : ويحك يا ابن سميّة ، تقتلك الفئة الباغية. " وكان خزيمة بن ثابت الأنصاري يتبع علياً في صفين ولكنه لا يقاتل ، وإنما يتحرى أمر عمار ، فلما عرف أنه قتل قال : الآن استبانَت الضلالة ثم قاتل حتى قتل^(١) . وقام معاوية بتأويل الحديث وقال : أنحن قتلناه ؟ إنما قتله الذين جاءوا به .

كان عمار يحارب وهو شيخ قد نيف على التسعين ، شاخ جسمه ولكن عقله وبصيرته ظلت بمأمن من الشيخوخة ، فكان شاب الحديث المناظرة ، وكان شاب الجهاد . كان يحارب يوماً تجاه عمرو بن العاص وهو يرتجز :

نحن ضربناكم على تنزيله ضرباً يزيل الهام عن مقليله
واليوم نضربكم على تأويله ويُدْهِل الخليل عن خليله

أو يرجع الحق إلى سبيله

كان أصحاب علي يرون أن قتالهم لمعاوية هو عملية جهادية.. ويذكر أهل العراق مكان علي من النبي وقول النبي لأصحابه : أأست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ فلما قالوا له : بلى ، أخذ بيد علي وقال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من ولاء وعاد من عاداه . ويذكرون كذلك قول الله عز وجل : (قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فترى صوابكم حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين .

(١) و ٣ د / طه حسين : الإسلاميات ، مرجع سابق ، ص ٨٩٣ ، ص ٨٩٤ .

فقد كان قتالهم مع علي أشبه بقتالهم مع النبي نفسه جهاداً في سبيل الله.

وفي صفر من عام ٣٧هـ أجمع الحكمان المفوضان من أهل الشام والعراق وكتبا اتفاقاً تضمن قبول الفريقين المتنازعين بتحكيم كتاب الله. وأن يحيي الحكمان ما أحياء القرآن ولا يتبعان الهوى ولا يداهنان، وتحديد مكان اجتماعهما، وتأمينهما على أنفسهما وأموالهما، وجاء فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية ابن أبي سفيان، قاضى علي على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، إنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه، ولا يجمع بيننا غيره، وإن كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته، نحیی ما أحیا ونمیت ما أمات، فلما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل - وهما أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس، وعمر بن العاص القرشي - عملاً به ومالاً يجداه في كتاب الله عز وجل، فالسنة العادلة الجامعة غير المفركة^(١).

وإقراراً للواقع نلاحظ أن الاحتكام إلى كتاب الله، إنما تبلور عندما وجد الناس أنفسهم في وضعية مأساوية - الأخ يقاتل أخاه - خصوصاً وأن الاتصال بين المعسكرين كان قائماً صباح مساء، كل قبيلة تجتمع إلى أختها في الصف الآخر.. تجمع قتلها وتنتقل جرحاها.. إلخ.

(١) د/ محمد جمال الدين سرور: الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ٧٩.

على أن اللجوء إلى التحكيم لتجنب الصدام تقليد عربي قديم.. ومهما يكن فإن من الثابت تاريخياً أن تياراً واسعاً في صفوف علي ابن أبي طالب، كان يرى تجنب الحرب قبل وقوعها، وبقي هناك من يرغب في إنهاء النزاع : إما بوازع ديني "المسلم يقتل أخاه المسلم" أو بدافع قبلي.. وبالمقابل كان هناك في صفوف علي دائماً جماعات أخرى تضغط على مواصلة القتال، تدفعها مصالح أخرى.

وأخذ الأشعث بن قيس يطوف على معسكر علي بكتاب التحكيم يفهم "الناس" أعني رجال القبائل أن "التحكيم" قضية اليمينيين، فكان رد فعل قبائل بكر من ربيعة وتميم من "مضر" وهو رفض التحكيم، وقام جماعة من بني تميم في وجه الأشعث، وقال له أحدهم : (تحكمون في أمر الله عز وجل برجال.. لا حكم إلا لله).. ثم شد بسيفه فضرب به الأشعث فأصاب دابته، فاندفعت تجري وهو عليها ولما شاهده قوم الأشعث ذلك قاموا لنجدته، وكادت الحرب تشتعل في صفوف علي بين بني تميم وأهل اليمن لولا أن تدخل كبراء بني تميم فاعتذروا للأشعث بن قيس وقومه^(١).

اضطر الخليفة علي بن أبي طالب إلى وقف القتال وقبول التحكيم.. وتوجه إلى مدينة الكوفة واتخذها عاصمة لخلافته، وبعد وقعة صفين صارت مقالة عروة بن أديّة تنتشر شيئاً فشيئاً بين أنصاره مما أدى إلى انقسامهم على أنفسهم، فأبى جماعة من القراء وغيرهم من أتباعه أن يدخلوا مع علي الكوفة، ونزلوا في إحدى قرى الكوفة، لاعتقادهم أنهم أخطؤوا بقبولهم فكرة التحكيم لأن التحكيم يتضمن شك كل فريق

(١) الطبري : ج٤، مرجع سابق، ص ٣٩.

من المحاربين أيهما المحق، وجعلوا شيث بن ربيعي التميمي قائداً لهم، وعبد الله بن الكواء اليشكري إمامهم في الصلاة، ونادى أحدهم أن البيعة لله عز وجل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فخرج إليهم الخليفة علي، وقال لهم : ما أخرجكم علينا ؟ قالوا حكومتكم يوم صفين، فبين لهم أنه قبل التحكيم كارهاً، وعندما لم يجد مفراً منه طلب من الحكمين أن يحكما بما في كتاب الله، ثم دعاهم إلى دخول الكوفة، فدخلوا معه.. إلا أن الخلاف عاد من جديد عند بدء الاستعداد للتحكيم، فقد بعث معاوية رسولا من قبله إلى علي يحثه الوفاء بعهدده خشية أن يحمله بعض أتباعه من أعراب بكر وتميم على العدول عن التحكيم، فأمر بإنفاذ أبي موسى الأشعري إلى مكان اجتماع الحكمين، فواصل المعارضون على التحكيم، من قبيلتي بكر وتميم مناهضة علي، فكان إذا وقف علي، على المنبر خطيباً قاطعوه بقولهم (لا حكم إلا لله) فيرد عليهم بقوله : كلمة حق أريد بها باطل، كما تلا بعضهم هذه الآية يعرض به (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين)، فأجابه علي بآية أخرى (فاصبر إن وعد الله حق لا يستخفنك الذين لا يوقنون)، ولما أكثروا مقاطعتهم له، قال لهم : لكم عندنا ثلاث، لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه، ولا نمنعكم نصيبكم من الفياء ما دامت أيديكم مع أيدينا ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا^(١).

ولم يلبث هؤلاء الخوارج أن لقي بعضهم بعضاً واجتمعوا في دار عبد الله بن وهب الراسي فخطب فيهم وزهدهم في الدنيا ووعظهم، ثم دعاهم

(١) ابن الأثير : ج ٣، ص ١٣٣ - ص ١٣٤ .

إلى الخروج من الكوفة بقوله : أخرجوا بنا إخواننا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور الجبال أو إلى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضلة، فلبوا دعوته وبايعوه في شوال عام ٣٧هـ. وبذلك اعتزلوا علماً مرة أخرى، واتجهوا إلى النهروان حيث لحق بهم خوارج البصرة^(١).

من جهة أخرى توجه أبو موسى الأشعري مع أربعمئة رجل، كما بعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمئة رجل، والتقى الحكمان في منطقة تسمى (دومة الجندل)^(٢) في رمضان عام ٣٨هـ وبدأ يجتمعان من حين لآخر في المكان المتفق عليه، وقد تناولوا في اجتماعاتهما المتعددة كل المسائل التي كانت مثار اختلاف المسلمين في ذلك الوقت، وأهم نقطة اتفقا عليها في بادئ الأمر أن عثمان قتل مظلوماً، وأن معاوية ولي دمه، ومن حقه أن يطالب بأخذ الثأر من قاتليه^(٣) واتفقا على خلع علي ومعاوية، وترك الأمر شورى بين المسلمين فيختارون لخلافتهم من يشاؤون.

وبدأ عمرو بن العاص يكثر من التبجيل والتقدير لأبي موسى الأشعري لسنه ومقامة وكان ذلك لغاية في نفسه، فحمد الله عز وجل وأثنى عليه، ثم قال : أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة، فلم نر أصح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمر قد اجتمع رأيي ورأي عمرو عليه، وهو أن نخلع علياً ومعاوية، وتستقبل هذه الأمة، هذا الأمر فيقولوا منهم من

(١) نفس المرجع ص ١٣٤.

(٢) منطقة دومة الجندل، تقع على الطريق الممتد من دمشق إلى المدينة .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٤، ص ٤٩ - ص ٥٠.

أحبوا عليهم، وإنني قد خلعت علياً ومعاوية، فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً^(١).

الملاحظ، أن أبا موسى الأشعري خلع معاوية ولم يكن له بيعة في الخلافة في رقاب المسلمين ولم يكن ولي الدم لعثمان شرعاً لأن الخليفة المقتول عثمان له أبناء، وهم أصحاب الدم، كذلك من الناحية الشرعية الخليفة علي هو ولي الدم بحكم بيعة المسلمين له. فلماذا أقر أبو موسى الأشعري على نفسه، ذلك العمل الخاطئ سياسياً ودينياً بينما علي هو الخليفة المبايع من المهاجرين والأنصار، والقبائل الممثلة لبلدانهم كاليمنيين والمضريين وغيرهم.

المهم في الأمر أن عمرو بن العاص صعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وقال: إن هذا قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فإنه ولي دم عثمان بن عفان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه. وبذلك نقض عمرو ما اتفق عليه مع أبي موسى الأشعري، كما لم يحافظ على العهد الذي أعطاه على نفسه في صحيفة التحكيم^(٢) مما أدى إلى تنابذهما، ثم انصرف كل فريق إلى ناحية، فلحق أبو موسى بمكة، وعاد وفد العراق إلى علي، كما رجع أهل الشام إلى معاوية حيث بايعوه بالخلافة^(٣).

(١) الطبري: نفس المرجع، ص ٥١-٥٢.

(٢) ينص كتاب التحكيم على اتفاق بين الحكيم نياية عن علي ومعاوية، على الاحتكام لكتاب الله وسنة رسوله وإيقاف القتال، وضرباً أجلاً للقاء، وإصدار الحكم في شهر رمضان عام ٣٧هـ وكان قد اجتمعوا في شهر صفر من نفس العام.

(٣) د / جمال الدين سرور مرجع سابق ص ٢٨.

وانتصر بهذا الحكم الذي أصدره الحكمان (جماعة معاوية) بمقتضاه خلع الخليفة الشرعي علي بن أبي طالب من الخلافة .. أما معاوية فلم يصبه شيء لأنه كان والياً على الشام من قبل عثمان ولم يطلب البيعة لنفسه ، ولم يبايعه أحد بأمره المؤمنين ، فإذا عزل فإنما يعزل عن ولاية الشام.. وقد نوه معاوية إلى ذلك بقوله " وقد حاكمناهم إلى الله فحكم لنا عليهم ثم جمع كلمتنا وأصلح ذات بيننا وجعلهم أعداء متفرقين يشهد بعضهم على بعض بالكفر ويسفك بعضهم دم بعض " .

وعاد جيش علي بعد التحكيم إلى الكوفة في فوضى وتمزق (خرجوا مع علي إلى صفين متوادين أحباء فرجعوا متباغضين أعداء ، ما برحوا من عسكرهم بصفين حتى فشا فيهم التحكيم وقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشائمون ويضطربون بالسياط.. ويقول الخوارج يا أعداء الله أوهنتم في أمر الله عز وجل وحكمتم ، وقال الآخرون - الذين فرضوا التحكيم - فارقتم إمامنا وفرقتم جماعتنا ، فلما دخل "علي" الكوفة لم يدخلوا معه حتى أتوا حرورا^(١) فنزل بها منهم اثنا عشر ألفاً ونادى مناديهم (إن أمير القتال شيبث بن ربعي التميمي ، وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء الشكري ، والأمر شورى بعد الفتح ، والبيعة لله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)^(٢) .

(١) قرية من قرى الكوفة .

(٢) الطبري مرجع سابق : انظر المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٤٠٥ : ويضيف المسعودي أن علياً خرج إليهم وعمل على إقناعهم بدخول الكوفة فدخلوا جميعاً .

ولذلك نلاحظ أن الأول من بني تميم والأخير من بني بكر أقوى قبائل ربيعة. ولذلك قال عنهم علي بن أبي طالب، إنهم (أعاريب بكر وتميم). وإذا أضيف إليهم نافع بن الأزرق وأنصاره، الذين حملوا فرقة (الأزارقة) وكانت من أقوى فرق الخوارج، فإنه يمكن القول بصفة عامة إن قبائل شرق الجزيرة العربية قد انفصلت عن علي بن أبي طالب، ولم يبق معه إلا أهل الكوفة، ومعظمهم من القبائل اليمنية^(١).

والملاحظ أن ضحايا الحرب كانت فادحة إن لم تكن مأساوية، فقد قتل من أصحاب الإمام علي (جماعة كثيرة من صلحاء الناس وقرائهم).. ولم يكن من قتل من أصحاب معاوية أقل خطراً في أهل الشام ممن قتل من أصحاب علي في أهل العراق.. كان كثير من أولئك وهؤلاء يرون القتال ديناً ويتقربون به إلى الله يذكرون أهل العراق مكانة علي من النبي، وقول النبي لأصحابه الست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا بلى. فأخذ بيد علي وقال : من كنت مولاة فعلي مولاة اللهم وال من والاه وعاد من عاداه..^(٢) فحين كانوا يقاتلون مع علي كأنهم يقاتلون مع النبي نفسه جهاداً في سبيل الله.. وكان أصحاب معاوية يرون أن بيعة عثمان في أعناقهم وأن الذين قتلوه، قد أحدثوا في الإسلام حدثاً خطيراً واستحلوا من دمه ما حرم الله واستحلوا من الإمامة ما لا يحل للمسلمين أن يفرضوا فيه، فضلاً عن أن ينتهكوا حرمة " (٣).

(١) د / محمد عابد الجابري : العقل السياسي العربي، مرجع سابق، ص ١٦٣.

(٢) / طه حسين : مرجع سابق ص ٨٩٥.

(٣) نفس المرجع، ص ٨٩٥.

وأظهر الخوارج العداء لعللي ودارت معارك بينه وبينهم. وبعد أن اطمأن إلى أنه قد قضى عليهم دعا أنصاره لغزو الشام من جديد ، فلم يجد منهم أذناً مصغية، فأعاد القول عليهم ووعظهم وحثهم على الجهاد، فقالوا : (يا أمير المؤمنين كلت سيوفنا وفنيت نبائنا ونصلت أسنة رماحنا ، فأعدنا على مصرنا لنستعد بأحسن عدتنا^(١)).

في الوقت ذاته كان الخليفة علي بن أبي طالب قد عاد إلى قاعدته العسكرية في النخيلة (خارج لكوفة) وأمر قاداته أن يلزموا المعسكر ويوطنوا نفوسهم على الجهاد ، ونهاهم عن عودتهم ، إلى أهاليهم حتى يعودوا من الشام ، فأقاموا هناك أياماً ثم صاروا يتسللون ويدخلون الكوفة حتى خلا المعسكر منهم ، ولم يستطع أقناعهم ولا إقناع رؤسائهم ، وآثروا الإقامة بالكوفة وتخادعوا عن نصرته مع قدراتهم القتالية والعديدية.. وبلغ معاوية ذلك فبدأ يغزو المناطق التي تدين بالولاء لعللي ، فأرسل جيشاً إلى مصر وأسند قيادته إلى عمرو بن العاص ، فقدمها عام ٢٨ هـ. وكان اهتمام معاوية بالاستيلاء على مصر لكثرة خراجها.. وتمكن هذا الجيش من هزيمة واليها محمد بن أبي بكر وجنده ، وبذلك دخلت مصر في حوزة معاوية ، وانتهى سلطان علي منها^(٢).

وعمد معاوية ، أيضاً إلى غزو أطراف العراق ، فأرسل النعمان بن بشير إلى عين التمر عام ٣٩ هـ ووجه سفيان بن عوف للإغارة على هيت والأنبار ،

(١) الطبري : ج ٤ مرجع سابق، ص ٧٧.

(٢) د / جمال الدين سرور : مرجع سابق، ص ٨٧.

كما سار معاوية بنفسه حتى مشارف دجلة ، ثم عاد إلى الشام^(١) وهذا يدل على ضعف سلطة علي وقوة سلطان معاوية.

وفي عام ٤٠ هـ أرسل معاوية بسر بن أبي أرطاة إلى الحجاز فاستولى على المدينة ، ولجأ أبو أيوب الأنصاري إلى علي بالكوفة.. ثم زحف بسر إلى مكة وأكره أهلها على البيعة لمعاوية ، ثم توجه منها إلى اليمن ، وكان بها عبد الله بن عباس ، عامل علي ، فانصرف عنها هو وأعوانه إلى الكوفة ، وبذلك أتاحت الفرصة لبسر ليقضي على أنصار علي ، ثم عاد إلى الشام^(٢). بعد أن ارتكب كثيراً من المجازر البشعة في اليمن.

ووجد الخليفة علي بن أبي طالب نفسه مضطراً لإستهزاء أتباعه من جديد وأشار إليهم بأنهم هم الذين فرضوا عليه البيعة ، وقال لهم : (أما ترون إلى أطرافكم قد انتقصت وإلى مصركم قد افتتح فما لكم تؤفكون ، إلا أن القوم قد اجتمعوا وجدوا وتناصحوا إنكم تفرقتم واختلفتم وتغاشستم تسعدون فأيقظوا رحمكم الله نائمكم وتحرروا لحرب عدوكم)^(٣).

فبأيعه أربعون ألفاً من أهل العراق على الموت ، وزاد حماسهم للخلاص من معاوية حين بلغهم ذهابه إلى بيت المقدس وأخذ البيعة عام ٤٠ هـ.

(١) الطبري : ج ٤ المرجع السابق، ص ١٠٢ - ص ١٠٣.

(٢) د/ جمال الدين سرور : مرجع سابق، ص ٨٨.

(٣) ابن الأثير، ج ٣، ص ١٦١.

وبينما كان علي يستعد للمسير بهذا الجيش فقد تعرض لمؤامرة اغتيال،
إذ تلقى طعنة قاتلة من أحد الخوارج^(١).

وبويع الحسن بن علي للخلافة.. وكان الحسن لا يريد قتالاً ولكنه
يريد أن يأخذ لنفسه ما استطاع من معاوية، ثم يدخل في الجماعة.. وعرف
الحسن أن قيس بن مسعد لا يوافق على رأيه، فنزعه وأمر عبيد الله بن
عباس، فلما علم ابن عباس بالذي يريد الحسن عليه السلام أن يأخذ
لنفسه، كتب إلى معاوية يسأله الأمان، ويشترط لنفسه على الأموال التي
أصابها، فشرط ذلك له معاوية^(٢).

وبينما الحسن وجيشه بالمدائن سمع قدوم معاوية إليه في جيشه.. وأطلق
معاوية إشاعة وسط جيش الحسن، تقول: "إن قيس بن سعد، قد قتل
فانفروا، حتى استجاب الناس بسهولة: فنفروا ونهبوا سرادق الحسن عليه

(٤) يشير ابن قتيبة: في كتابه الإمامة والسياسة، ج ١ ص ١٣٧ - ص ١٣٨: إلى أنه بينما كان
نفر من الخوارج يشهدون موسم الحج عام ٣٩هـ رؤوا اختلاف أنصار علي ومعاوية كل يأبى أن
يصلي بصلاة خصمه، فاختار الناس رجلاً ليس له صلة بأحد الفريقين ليقم لهم صلواتهم، فلما انقضى
الموسم أقام هؤلاء نفر مجاورين بمكة، وتحدثوا في ضرورة إراحة الأمة الإسلامية من هذا
الاختلاف، فقال عبد الرحمن بن ملجم المرادي: أنا أكفيكم علياً، وقال الحجاج بن عبد الله
الصيرمي: أنا أكفيكم معاوية، وقال عمرو بن بكر التميمي السعدي: أنا أكفيكم عمرو بن
العاص، ومضى كل منهم إلى الجهة التي سينفذ فيها مؤامره، فلم يصب المتأمر على معاوية منه
مقتلاً، أما عمرو بن العاص فلم يخرج للصلاة في اليوم المحدد لاغتياله وصلى بالناس صاحب شرطته
فضر به الخارجي وهو يظن أنه ابن العاص.. وأقام عبد الرحمن بن ملجم المرادي بالكوفة يرقب
خروج علي فلما خرج للصلاة وثب عليه، وقال له الحكم لله يا علي لالك وضربه بسيفه وبذلك
قتل علي.. وتوفي في ١٧ رمضان عام ٤٠هـ، وبايع الناس الحسن بن علي بالخلافة بعد مقتل أبيه
في عام ٤٠هـ ودعا لبيعته قيس بن سعد بن عباد، وقال له أبسط يدك أبايعك على كتاب الله
وسنة نبيه، فقال له الحسن: علي كتاب الله وسنة نبيه فإنهما يأتيان على شرط وكان الحسن يرى ألا
يباع على الحرب ليكون خيراً فيما يرى من الحرب أو السلم، فبايعه قيس وتبعه سائر الناس، ولما
تمت له البيعة اشترط عليهم أن يسمعوا ويطيعوا ويحاربوا من حارب ويسالموا من سالم، فارتاب أهل
العراق من أمره حين سمعوا هذا الشرط وظنوا أنه يريد الصلح.

(٢) د/ محمد الجاهري، مرجع سابق، ص ١٦٣.

السلام، حتى نازعوه بساطاً كان تحته.. فلما رأى الحسن عليه السلام، تفرق الأمر عنه، فبعث إلى معاوية يطلب الصلح، فبعث معاوية مندوبين عنه، وصالحا الحسن على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف في أشياء اشترتها^(١)... منها أن يكون الأمر له أي للحسن^(٢). أو يكون الأمر شورى بين المسلمين. ثم قام الحسن في أهل العراق خطيباً فقال: يا أهل العراق إنه سخي بنفسي عنكم ثلاث: قتلكم أبي، وطعنكم إياي - وكان قد جرح بعد أن نهب سرادقه - وانتهابكم متاعي.. وهكذا دخل الناس في طاعة معاوية... ودخل معاوية الكوفة، فبايعه الناس وصار خليفة بالإجماع، فسمي ذلك العام عام الجماعة. (٤١هـ)..وقامت دولة جديدة، دولة الملك السياسي.

وبدأ المحيطون بمعاوية يوظفون أحاديث نبوية، حيث رويت أحاديث على إغواء بني أمية من العقاب يوم القيامة، وترفع خلفاء بني أمية إلى مقام الأنبياء.. من ذلك تقول الرواية: أتى جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد إقرئ معاوية السلام، واستوص به خيراً فإنه أمين الله على كتابه ووصيه ونعم الأمين.. " وفي حديث آخر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الأمناء ثلاثة جبريل وأنا ومعاوية. كما روجوا حديثاً يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم علم معاوية الكتاب ومكن له في البلاد وقه العذاب^(٣).

(١) نفس المرجع، ص ١٦٤.

(٢) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، مرجع سابق، ص ١٦٣.

^٣ أبو الفداء الحافظ بن كثير: البداية والنهاية، ١٤ ج - في ج ٧، بيروت، دار الكتب العلمية،

(د.ت)، ص ١٢٢ - ص ١٢٩.

وفي حديث آخر عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يطلع عليكم من هذا الباب رجل من أهل الجنة ، فطلع معاوية ، قال من الغد مثل ذلك فطلع معاوية ، فقال رجل يا رسول الله هو هذا ؟ قال: نعم.. وعن ابن عمر أيضاً قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا معاوية أنت مني وأنا منك لتزاحمني على باب الجنة كهاتين" وأشار بإصبعيه السبابة والتي تليها " (١).

هذا من جهة ومن جهة أخرى روجوا أحاديث تعفي الخلفاء من العقاب يوم القيامة ، من ذلك حديث يقول : إن الله تعالى إذا استرعى عبداً رعية كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات.. وحديث آخر يقول : "إن من قام بالخلافة ثلاثة أيام لم يدخل النار".

وتأسيساً على مثل هذه الأحاديث قال معاوية يوماً : قد أكرم الله الخلفاء أفضل الكرامة ، أنقذهم من النار وأوجب لهم الجنة وجعل أنصارهم أهل الشام (وخطب هشام بن عبد الملك حين ولي الخلافة فقال: "الحمد لله الذي أنقذني من النار بهذا المقام".

واستعمل الأمويون الفقهاء لتكريس وتوثيق مثل هذه الدعاوي ، من ذلك أن يزيد بن عبد الملك أحضر "أربعين شيخاً شهدوا له ما على الخلفاء حساب ولا عذاب" (٢).

(١) محمد بن الحسين أبو يعلى الحنبلي : المعتمد في أصول الدين، بيروت، المكتبة الشرقية، ١٩٨٦، ص ٢٣٥.

(٢) جميع هذه الأحاديث وكثير غيرها أوردها ابن عساكر والبلاذري، أنظر: د/ محمد عابد الجابري : مرجع سابق، ص ٣٠٣.

بالمقابل توجد أحاديث تقول العكس وتتسبب إلى نفس الرواة الذين ذكروا لمعاوية ذلك الشأن، منها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه". وفي لفظ آخر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا رأيتم معاوية يطلب الإمارة فاضربوه بالسيف". وفي حديث آخر عن عبد الله بن عمر قال: "كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يطلع عليكم من هذا الفج رجل من أمتي يبعث يوم القيامة على غير ملتي، فطلع معاوية فقال: هو هذا".

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً اتخذوا مال الله دولاً وعباده خولاً ودين الله دغلاً. وفي حديث آخر: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركعة الثالثة من المغرب قال: اللهم العن معاوية بن أبي سفيان والعن عمرو بن العاص. وعن أبي ذر قال: قال رسول الله أول من يبدل سنتي رجل من بني أمية^(١)).

لا يحتاج القارئ إلى التشكيك في هذه الأحاديث، فهي تكذب نفسها بنفسها وكان رواة الأحاديث هذه أرادوا بها حرباً سياسية. منطلقين من مبدأ الغاية تبرر الوسيلة وكان مقابل هؤلاء المتصارعين، جماعة من الخوارج وهم أهل التكفير. وقد مارسوا أنواعاً من الإرهاب الديني ولم يكن الخوارج أهل فكر ونظر بل كانوا أصحاب (ثورة دائمة) على الحكم الأموي.. وعلى الرغم من أن الثورة مهما كانت فهي تحتاج دوماً إلى غطاء نظري.. لقد ثار الخوارج على علي بن أبي طالب،

(١) أبو يعلى الخنبلي: ص ٢٣٦ - ص ٢٣٧، نقلاً عن د / محمد عابد الجابري، مرجع

عندما قبل (التحكيم) مدعين أن الحكم لله وحده، وأن علياً وجنده قاتلوا على الحق، وبالتالي لا يجوز الشك في قضيتهم ولا تحكيم الرجال فيها لقد اعتبروا التحكيم كفراً فأعلنوا واشترطوا على علي بن أبي طالب أن يعترف بالكفر بسبب قبوله التحكيم ويعلن توبته، لكي يعودوا إلى القتال معه. فرفض علي ذلك، وبما أن الكفر نقيض الإيمان، فيجب تحديد معنى الإيمان كذلك. وكانت محل نقاش. لقد اعتبر الخوارج حركتهم خروجاً عن (القرية الظالم أهلها) وبالتالي فكل من بقي في صفوف علي و صفوف معاوية ولم يخرج فهو عندهم "كافر" ..